المشرق

ما هُنالك

زيارة حديثة لقصر يلديز الشهير

للاب لويس رتر فال احد اساتذة المكتب الشرقي

ان الزائر الذي يحتلّ الأستانة لاوّل مرّة تأخذهُ الدهشة من كثرة ما يجدهُ في تلك العاصمة من المشاهد والتحف والابنية الفخمة فيتنقّل من محاسن الى أُخرى على جناح السرعة دون ان يملأ عينهُ من الرئيّات . فلا يلبث ان ينسى كثيرًا ممَّا عاينهُ ما لم يُطل الاقامة في ربوع دار السلام ويخصّ كل يوم بعض تلك المناظر المبهجة فيتروّى في اسرار صناعتها ويتأمّل دقائق تحاسنها فيدنيها وصفًا أوفى واضبط كما فعل حضرة الاب بولس جوون في مقالاته المضونة المشاهد الفتّانة في رحلة الاستانة (في المشرق ٢ : ٩٦١ و١٠٣٧ اطلب ايضًا ٧ : ١٠٦٢)

على انَّ بعض آثار حاضرة الدولة العثمانيَّة كان محجوبًا لا يُسمح لأحد ان يُشبع فيها الابصار الّا ما اختلسهُ النظر من ظاهره فقط . وفي مقدّمة تلك المحجوبات ذلك القصر المنيف الذي كان يسكنهُ السلطان السابق عبد الحميد خان نزيد قصر يلديز اي الكوكب عُرف بهذا الاسم لجماله الفائق . فكان المحظوظ من المسافرين اذا قدم الاستانة ونال الرخصة بحضور رتبة السلاملك يقاد الى مكان مرتفع على ممرّ الموكب السلطاني حتى اذا حان وقت الصلاة انفتح باب القصر وخرج منهُ صاحب السلطنة راكبًا عربتهُ وحوله نخبة من رجال دولته فيسير عاجلًا الى المسجد الذي ابتناهُ ودعاهُ باسم المسجد الحميدي بينما تحيّيه الجند بالسلام وتصرخ ثلاثًا طالبة لهُ الفوز والظفر . وبعد ثُلث الساعة تنتهي الصلاة فيعود المولى الى بلاطهِ وتُقفل من ورائهِ الابواب

فكان الناظر يحدّق الى ذلك القصر مفكّرًا في ما يتضمّنهُ من الآثار والكنوز وراء جدرانهِ راغبًا كل الرغبة في معرفة اسرار ذلك المقام وما يجري فيهِ من الامور لسكّانهِ وعلى الاخصّ لسيّدهِ الاعظم وربّهِ الرهيب. فكان الباحث كلّما تعمّق في البحث عن مكنونات ذلك المنزل ازداد شوقًا للاطّلاع على ما تتضارب الآراء في بيانهِ وتتناقلهُ الالسن في تعظيم شؤونهِ فيعود كالشارب العطشان اقترب من ينبوع المياه ولم يروِ منها غليلهُ

اما الآن فقد تحوّلت الامور وصارت تلك الاسرار الغريبة الى خبر كان منذ تخطّت الجنود الدستوريّة الظافرة عتبة ذلك القصر الفخيم فانّ الابواب قد انفتحت وطُفي صاحبهُ الى بعيد فقام بدلًا منهُ سلطان آخر لم يحتج الى التستّر والتخفّي فاحتلّ بعد ان حُجز عليهِ ٣٢ سنة قصرَ والدهِ عبد الحميد طوالهُ بفيهِ. اما يلديز فاصبح معهدًا عموميًا وأحد متنزّهات اهل العاصمة يدخلونهُ بعد دفع رسم طفيف للحكومة فيطأون بالارجل تلك الحدائق التي كان يتجوّل فيها السلطان المخلوع مع بعض خواصّهِ ويشخصون الى ما هنالك من الأثاث والامتعة والجواهر. فلله ما اعظم ذلك الانقلاب وما اسعد بخت الذي يُتاح لهُ الحظوى بما لم يخطر على بال

فهذا السعد غير المأمول قد حظينا بهِ في فصل الصيف الاخير باواخر شهر آب المنصرم. فاذ كان صباح احد ايّامهِ والنسيم عليل وأديم السماء صافٍ خرجنا نريد يلديز على طريق البوسفور وهي اشهى الطرق المؤدية الى ذلك المقام فركبنا سفينة بخاريّة وسرنا صعودًا على ضفّة المضيق من جهة آسية وقد كنّا غير مرّة سرنا على ضفّة ذلك البرزخ فسرّحنا البصر في محاسنهِ البديعة ورأينا منعكسةً في مرآة مياههِ الصافية صور الابنية الشاهقة والمنازل الصيفيّة البهجة التي تجاورهُ. وكأنّ تلك المناظر في صباح ذلك اليوم اكتست في أعيننا رونقًا جديدًا فكانت تدعونا بمحاسنها الى مواصلة سيرنا نحو القصر الذي تتمنّى زيارتهُ ولسانُ حالها يصرخ الينا قائلًا: عمّا قليل سينكشف دونكم حجاب تلك المكنونات التي أيس من كان قبلكم عن مشاهدتها. وبعد ساعة جزنا الى جهة اوروبّة ونزلنا الى بشكطاش وهناك تركنا السفينة فأقلّتنا عجلةٌ الى روابي يلديز فبلغنا تلك المشارف بعد ثلث ساعة

ولا بُدّ هنا من تنبيه القرّاء الى غلطٍ يتناقلهُ الرواة فيزعمون انّ بلاط يلديز قائم في اقاصي قرن الذهب. والصواب ان قرن الذهب خليج مستطيل يمتدّ في وسط البرّ عن

يسار البوسفور بين المدينة القديمة والبلد الحديث. امّا قصر يلديز فانّهُ ينتصب على أكمة تُشرف على البوسفور من عن شمال المدينة الحديثة شرقيًّا فيما وراء حيّ بيرا (اطلب الخارطة التي رسمناها)

ثم تجاوزت العجلة نطاق المساكن واخذت تصعد الى بلاط عبد الحميد وكنّا كلّما نزيد ارتفاعًا تتّسع امامنا دساكر الحاضرة فيكشف النظر على ما يأخذ بمجامع الصدور فكنّا نرى على احد طرفَيْنا البوسفور وربضهُ البديع وعلى الطرف الآخر تلوح لنا رُبى بنكالدي تزينها الاشجار الوارفة الظلّ. وكنّا نسير في عزلة وهدوء لا نكاد نلقى في طريقنا الّا افرادًا من الناس كأنّا نتوجّه ليس الى قصر احد الملوك بل الى قلعة حريزة لا يقرب منها غير جندها. وتمكّن منّا هذا التأثير لمّا تخطّينا المسجد الحميديّ فوصلنا الى مدخل يلديز وهو مجهّز ببابين واسعين. وعلى جانب الطريق في هذا المكان جدارٌ مرتفع يكاد يحجب ما وراءهُ من الأبنية الداخلة. فرأينا في ذلك صورةً حيّة تمثّل الدولة السابقة فقابلنا بين ظلمه يفجه ويلديز واذا هما على طرفي نقيض فذاك بهجُ المنظر نضر الحدائق تروقُ العين طُرَفُهُ الغرّاء المكشوفة للعيان وراء مدخل مزخرف بالمشبّكات الواسعة المتناقد على عكس قصر يلديز الذي ينقبض الصدر لمنظره ومعاهده السرّية فكأنّهُ عبد الحميد كاسف الوجه جهم المحيّا في ايام سطوته وخشونة جانبه

وقبل ان نتوغّل في القصر دخلنا تجيل الابصار في الجامع الحميديّ الذي كان السلطان يخرج اليهِ كل يوم جمعة لصلاته فانّ عبد الحميد هو الذي امر بابتنائه تحيّت مدخل يلديز سنة ١٨٨٥—١٨٨٦ ومذ ذاك الحين لم يَعُدْ كأسلافهِ يقضي فرائض الصلاة في غيرهِ من جوامع عاصمة الاستانة مناوبةً. وهناك جرت حفلة السلاملك منذ نحو ربع القرن فكانت تجتمع بين القصر والجامع طوابير الجند بأزيائها المختلفة وكبار الدولة بزّاتهم الرسميّة واعيان المدينة ووجوه الاجانب وقوم لا يُحصى عددهم كانوا يتقاطرون لنظر تلك الحفلة المهيبة وكلُّهم في السكوت التامّ كأنّ على رؤوسهم الطير منتظرين بفروغ الصبر ظهور مولاهم حتى اذا انفتحت ابواب القصر وبرزت عجلتهُ الخيل المطهّمة تصاعدت الى افناء السماء اصوات الجند وهم يهتفون هُتافهم الرسميّ: « پادشاهم چوق يشا » وكم مرّة امتزجت بهذا الهُتاف دعوات المنكوبين يطلبون من إله العدل الانتقام من الظالم فاجاب الله الى دعائهم آخرًا

وكان فكرنا يتردّد بالامور الخطيرة التي دوت لها الآذان منذ سنة اذ دخلنا من باب اليمين ونحن لا نعلم ماذا يجب فعلهُ على الزوّار ليتجوّلوا في القصر دون عائق. واذا باعلانات وجدناها في طريقنا معلّقة تُشير باللغتين التركيّة والفرنسويّة الى الرسوم المقتضى دفعها على من يزور القصر او احد اقسامهِ مع الدلالة على الطريق التي تؤدّي الى تلك الاماكن. والرسوم تختلف على اختلاف المزوُرات وكل رسم لا يتجاوز خمسة غروش

فباشرنا زيارتنا بالحديقة الخارجة فاذا هي ارض فسيحة واسعة الارجاء تشمل قسماً كبيرًا من الروابي والآكام المنحدرة من اعالي يلديز الى البوسفور من جهته الشماليّة والشرقيّة وجنوبهِ الشرقي ولو اراد الزائر ان يزور الحديقة كلها لما استطاع الّا ان يصرف في تجوالهِ نصف نهار ومن ثمّ قُضي علينا ان نكتفي بمعاينة قسم منها

فطفنا اوّلًا من عن يميننا حول اسوار عاليـة شُيّدت في وسط يلديز تكتنف القصر والحديقة الداخليّة حتى وصلنا الى بستان عظيم تُشبه هندستهُ البساتين الانكليزيّة فيهِ الاشجار الباسقة العطريّة الوارفة الظلّ الدائمة الخضرة وهناك حظيرة للظباء والغزلان والرنام وغيرها من وحوش الصيد. وكنا نرى بين دغل الاشجار احواضاً تتدفّق مياهها الزلالية وبركًا كثيرة الاسماك ثمّ تسيل المياه في جداولها مترقرقةً وفوق الجداول معابر لطيفة الصنع تمرّ عليها العجلات وتتّصل بطرق مفروشة بالرمل والحصباء. تتشعّب بين الخمائل واصناف النبات وضروب الاشجار وقد أقيمت في وسط تلك الفياض جوامع ظريفة على هيئات مختلفة تخالها بين خضرة الحديقة درراً مكنونة. وخلاصة القول انّ تلك الجنائن قد أحيت في فكرنا حدائق بلاد اوربّة الشماليّة التي تُعدّ من عجائب الكون لوفرة غياضها واتّساعها على مدى البصر. على انّ هذه الحديقة السلطانيّة مع رحبها محاطة بجدران مرتفعة لا يمكن احد ان يتسلّقها. ومع هذا كان عبد الحميد لا يرى نفسهُ في أمان كافٍ وراء تلك الاسوار فما كان يحبُّ ان يتجوّل فيها خوفًا من عدوّ يترصّدهُ او خطر يتهدّدهُ

وممّا يستحقّ الوصف في هذه الجنينة الخارجة عدّة آثار كان بودّنا ان نزورها لولا ضيق الزمان وهذه اسماؤها كما وجدناها مرقومة في جهات الحديقة: معمل الآنية الصينيّة. الروضة الجديدة. حظيرة الايائل. قصر مالطة. مأوى الأُسود. الأزج الحديث. نادي الصيّادين. البأخور الخاص. فترى من هذه اللائحة ما جُمع في يلديز من المنازه

والمتاحف التي لا يستطيع احد ان يشاهدها ما لم يخصّ لها عدّة ساعات ونشير الى من يريدون ذلك ان يستأجروا عجلةً لنصف النهار فتنقلهم من مكان الى آخر بسرعة او يفردوا لتلك الزيارة يوماً كاملًا ومعهم زادهم فيتغدّون في ظلّ الاحراج التي هناك بقرب مائها السلسبيل .

قلنا ان بين الحديقة الخارجة والقصر السلطاني سوراً عالياً فنفذنا من بعض ابوابه الى روضة داخليّة أصغر من السابقة الّا انها متقنة غاية الاتقان وجديرة بمقام ملكي تفوق على الحديقة الخارجة بدقة هندستها وحسن نظامها وبنخبة اشجارها ونباتها وتفنن ترتيبها فهناك الزهور البديعة والنباتات العطرة واحرار البقول والمخارف الناعمة الدرّية الحصباء . وفيها صوان متّسع حسن الهندام مُزدان بالزجاج الملوّن والثريّات تستودع فيه ضروب النبات الغريب النزيز الوجود . وهذا الصوان اشبه بديوان فخيم ربّما كان عبد الحميد يُعدّ فيه الولائم لكبار دولته او لسفراء الدول الاجنبيّة

وكانت عيوننا لا تتجه في تلك الروضة الى منظر حتى تستجلبها مناظر اخرى ابهج وابدع كان في حراستها عمّال يدعوننا الى التطواف فيها لكنّنا اكتفينا بما شاهدنا هناك لئلّا يفوتنا منظر البلاط الداخلي . وكان تنقّلنا في انحاء تلك الرياض قد اتعبنا فدخلنا تحت مسقّف من الاشجار الملتفّة الاغصان واسع الافنان يحكم الهندام في وسطه حوض من الرخام يعوم فوق مياهه بجعٌ (cygne) كبير صناعي باسطاً جناحيه وهناك اخذنا نصيباً من الراحة وتخلّلنا بُعجالة من الزاد . وكان فكرنا كلّهُ منصرفاً الى ذلك السلطان الذي سكن هذه الامكنة مدّة نيّف وثلاثين سنة وكل ما هنالك ينطق بعظمته وسموّ شأنه واستبداده الذي آل الى سقوطه . فيا لصروف الدهر ويا لانقلاب الأيام

وبعد هنيهة استأنفنا سيرنا وعدنا الى الباب الفخم الذي كان يخرج منهُ السلطان ثم أدّينا الرسم المفروض ودخلنا دهليزاً صغيراً أنفذ بنا الى البلاط الداخلي وهذا البلاط مع ما يتّصل بهِ من الابنية والمتنزهات يمثل مرتبةً غاية في الرحب والسعة على طرفيه عدّة مقاصير كانت تسكن في اقصاها حرم السلطان . اما بقيّة الحُجَر والمعاهد فكانت معدّةً لسكنى السلطان في ليله ونهاره . وأفرز الطرّفان الآخران من ذلك المربع لروضة خاصّة تسحر العين بحسنها في وسطها البُحيرات والشلّالات والرياش مع مرسح صغير وهناك ايضاً مآوٍ مقفّصة لاجناس الطيور جُعلت على رفوف منتظمة بينها اجمل

متحف للحمام يُعرف في العصور وذلك استوقف اوّلًا ابصارنا فبقينا ساعةً بازاء تلك الطيور الصادحة فكانت تفتن ألبابنا بعددها الدثر وألوانها الزاهية واشكالها الغريبة واصواتها المطربة. فكأنّ عبد الحميد شُغف بهذا الطائر فجمع منهُ ما لا يُحصى عددهُ ليتلهّى بهِ هو وخواتين حرمهِ واولادهُ فيلطّفوا شيئاً من همومهم وينسوا ما يتربّص لهم الدهر في غدهِ. ولكل صنف من الحمام مقفّص منفرد مع اسمهِ الخاص واصلهِ وبلدهِ. وقد وجدنا عدداً وافرًا من تلك الطيور التي لم نَعلم بجنسها ولم نسمع بذكرها منها الحمام المرّي يُسمع لهُ صوت كالنُباح اصلهُ من ارضروم على رأسهِ قُنزُعة ظريفة وعلى مخلبيهِ وذنبهِ الريش الناعم المستدير. وفي آخر تلك الاقفاص المختصة بكل ضرب من الحمام قاعة واسعة جُمعت فيها الاصناف كلها من ٤٠٠ الى ٦٠٠ مختلطة ببعضها. فشغلنا منظرُها مدّةً ونحن لا نعي لوفرة محاسنها واختلاف حركاتها وجلبتها. وكان معنا قوم من الزوّار لم يتمالكوا من الاندهاش والحيرة لدى هذا المشهد الفريد

ولضيق الوقت ودّعنا الحمام مرغومين وسرنا في تلك الحديقة البهيّة طولًا وعرضًا وقطعنا في قارب مجهّز بالدواليب بعض بحيراتها حتى وصلنا الى القصور المواجهة لمآوي الطيور ونحن في أشدّ الرغبة الى معاينة الخزانة السلطانيّة وتتبع الابصار بمعاهد عبد الحميد الخاصّة وبكلّ ما كان لخدمتهِ. فخطونا بعض الخطوات حتى وقفنا امام قصر شاهق وجبَت قلوبنا لمنظرهِ وكأنّ ظلّ مولاهُ لا يزال فيهِ حيًّا فسمعنا الدليل يقول: هذا قصر عبد الحميد

فحدجنا القصر بالابصار واذا بهِ كأنّهُ ينمي بصاحبهِ فانّ السكوت ساند على جوانبهِ ونوافذهُ مغطّاة بالستار وابوابهُ مقفلةٌ عليها ختوم الدولة امّا الخزائن وكنوزها فبعد ان سُمح للجمهور ان يزورها حُجزت عنهُ خوفًا من ضياعها ومراعاةً لذكر صاحبها المكروب. ومن ثم لا نقدر ان نصف لقرّائنا وصفًا مدقّقًا تلك الجواهر التي جمعها عبد الحميد من كل انحاء مملكتهِ او أتحفهُ بها ملوك الدول كما اننا لم نعاين معاهده وحمّامهُ الخاصّ ولا حجرة منامهِ ولعلّهُ لم يتّخذ لمنامهِ مضجعًا واننا سمعنا الثقة يؤكّد لنا انّ عبد الحميد لم يأوِ غالبًا الى فراش بل كان ينام بثيابهِ حيثما يغلب عليهِ النعاس ولا يكن في حجرة واحدة ليلتين خوفًا من اعدائهِ كما يُحكى عن ملك صور يتمالون الظالم على انّنا لم نحرَم تمامًا من منظر ذلك القصر فانّنا اجتزنا قريبًا من نوافذهِ فرأينا

الستائر لا تحجب باطن القصر كلهُ بل بعضهُ فقط فعاينّا ما هنالك من الامتعة الثمينة كالطناقس الفاخرة والبُسط البهيَّة والشماعد المصمتة الذهب والمرايا الرفيعة والوسادات المزركشة والمرصَّعة بالحجارة الكريمة والعروش الملوكيَّة والكراسي الفخيمة وآنية الصين واليابان الغالية الثمن واجود مصنوعات معمل سيڤر في باريس. ورأينا ايضاً في وسط تلك القاعات مناضد من الرخام لها قوائم من فضَّة عليها من الهدايا اللطيفة ما يبلغ ثمنهُ المبالغ العظيمة منها سفينة بخاريَّة طولها ٧٠ سنتمترًا كلها من الصدف تمثل مركب السلطان في كل اجزائهِ حتى السواري والمراقد وهو مزيَّن براياتِ الدول والرايات كلها من الحجارة الثمينة تبلغ اثمانها ألوف ألوفٍ من الذهب. وقس على ذلك ما لم يمكنّا النظر اليهِ ويفوق ما يُخبر بهِ في كتب العرب الخرافيَّة كألف ليلة وليلة وما سواه

ثم رجعنا على الاعقاب ومررنا قرب محبسة الطيور فوقع البصر على متحف البيغاوات (الببَّغاء) قد حُبست انواعها في اقفاص منفردة ذات اسلاك من فضَّة او ذهب وكلها ذات ألوان زاهية عجيبة تجاري بحسنها بيغاوات قصر شونبرون في ڤينا وهذه الطيور تنطق بالفاظ مبهمة. وقد قيل لنا انَّ عبد الحميد كان لقَّنها كلمات مضحكة او شتائم بذيئة كنت تردّدها على مسامع بعض كبار دولتهِ اذا تكدَّر خاطرهُ منهم. امَّا نحن فلم نسمع منها غير اصواتها الخشنة ولعلَّ غيبة سيّدها قد أثَّرت فيها فقطعت لسانها الفصيح

*

ثم حان الوقت لمبارحة هذه الطُّرَف التي تطمح الى رؤيتها الابصار وعدنا راجعين الى الباب الفخيم فرأينا عددًا من الزوَّار يسيرون الى جانب آخر فيهِ قصر جميل يطلبون التجوّل في ردهاته فشينا برفقتهم واذ وصلنا مدخلهُ تلقَّانا شابٌّ اديب مسلَّماً واذا هو م. ك احد تلامذة مدرستنا الكليَّة في بيروت كنا عرفناهُ فيها مدَّةً فأحبَّ ان يكون لنا دليلًا على خواصّ القصر ومحتوياتهِ فهذا القصر هو الجوسق المعروف بجوسق المراسيم كان عبد الحميد يستقبل فيهِ مشاهير الرجال وسفراء الدول وهو يغلب بمحاسنهِ الداخليَّة بقيَّة المنازل الشاهانيَّة وكان السلطان جمع فيهِ من اسباب الغنى ما كاد يخلُّ بحسن الذوق. وهذا الجوسق مبني على الطرز الشرقيّ والزينة فيهِ مستعارة من مصطنعات الغرب واثاثهِ كالساعات الثمينة فوق المناضد البديعة النقش والشماعد المصمتة والمرايا

الفاخرة وابدع من ذلك البساط الذي يمتدّ على طول البهو الكبير وعرضهِ وهو قطعة واحدة من اجود الاشغال واغلاها قيمةً سداها ولحمتُها من الحرير كالجنس الدمشقي الذي يساوي احد بسطهِ عشرة آلاف فرنك ان بلغ ثلاثة او اربعة امتار مربّعة فقط فما قولك ببساط يتجاوز مئة متر . وفي احد جدرانهِ كوّة كان يترقّب منها السلطان مجيء السفراء دون ان يروهُ . وعن جانب الباب مخدعان كبيران كان عبد الحميد يعقد فيهما مجالس الشورى مع وزرائهِ وكلاهما مجمّل بالنقوش ومزدان بالمصاغات

وكان بودّنا ان نلقي على صديقنا م . ك صدّة لسئلة على القصور التي مررنا امامها وعمّا تحتويهِ من الذخائر الّا ان الوقت قضى علينا بالاسراع فوُدّعنا دليلنا شاكرين لهُ لطفهُ . وما لبثنا ان ركبنا العربة ثانيةً فانحدرنا من مشارف يلديز وبلغنا سكّة الترماوي التي تمرُّ قريباً من طوله بنجه وهو القصر الذي اختارهُ السلطان الجديد لمقامهِ وكان جلالتهُ وقتئذٍ موجودًا في بلاطهِ لحيّيناهُ بالسلام عن بُعد وطلبنا من المليك القدير أن يؤيّدهُ في كل اعمالهِ ويمكّنهُ من تحقيق امانيهِ الصالحة لخير الوطن العزيز وكأنّا عند نظرنا الى قصورهِ شعرنا بعصر جديد قام بعد عصر الجور والظلمات الذي شهدنا آثارهُ وراء اسوار يلديز . فانّ طوله بنجه في وسط البلد يجعل السلطان الساكن فيهِ قريباً من رعيّتهِ كأنّهُ الأب بين بنيهِ ويا ليت عبد الحميد ادرك الامر فلم يعتزل عن شعبهِ فسكن يلديز وبقي فيهِ كغريب لا يُرى ولا يُرَى . بخلاف السلطان محمّد الخامس فانّهُ اتخذ لهُ كشمار ان يكون ابًا لشعبهِ فعاد الى سكن والدهِ عبد المجيد . وتراهُ اذا خرج من قصرهِ تتقاطر الجموع الى لقياهُ كالابناء والاصحاب . وقد حضرنا مرّة حفلة السلاملك اذ خرج السلطان ليصلي في جامع بشكطاش فانّ الجماهير احدقت بهِ كالهالة بالقمر والاكام بالشر فرُحت بهِ وملأت الفضاء باصوات الترحيب والتهليل كأنهما بعد عهد السلطان السابق أحسّت بفك أغلالها ونجاتها . والحق يقال انّ المليك الجديد يستحقّ بأنهِ ولطف اخلاقهِ ان يكون اوّل سلطان دستوري بعد ان حنّكتهُ التجارب وعجمت عودهُ صروف الدهر مدّة اسرهِ ٣٢ سنة . وطوله بنجه هذا احد القصور السلطانيّة الثلاثة التي تزين اليوم الاستانة مع يلديز وچراغان (١ . موقعهُ مع چراغان على ضفّة

(١ ومن اراد تفاصيل وصفها فليراجع دليل ماثر Meyer's Reisebücher. *Türkei-Ru-* *manien* وهو كتاب نفيس من اضبط الادلّة واوفاها شرحاً لكنّهُ نُشر قبل اعلان الدستور فتشوّق

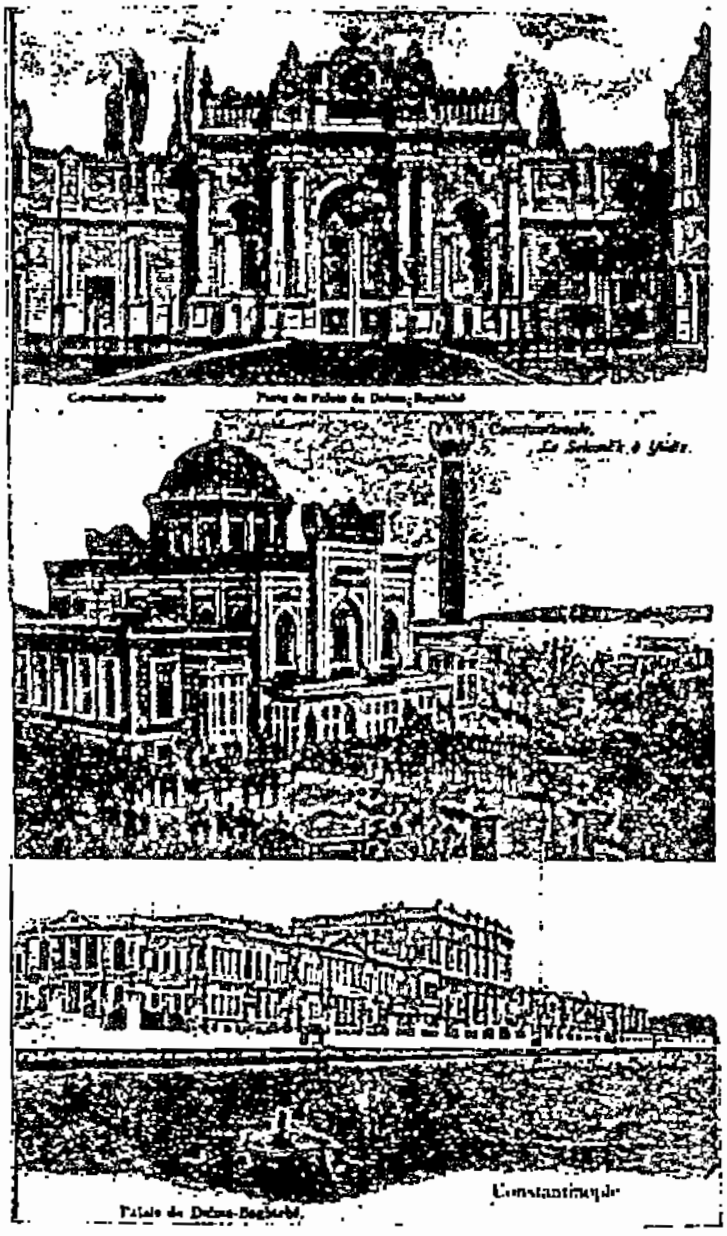

۱ و ۲ قصر طلمه بغچه — ۳ جامع یلدیز

البوسفور وكلاهما يزيد في محاسن هذا المضيق الشهير وكلاهما بُني او جُدّد بعد اواسط القرن التاسع عشر

اما طوله بتچه فقد امر ببنائه سنة ١٨٥٣ السلطان عبد المجيد. طول واجهته ٦٥٠ مترًا وكلها من الرخام الابيض وامامهُ رصيف واسع على البوسفور وقد بناهُ مهندسهُ على الطرز التركي المستحدث الذي يجمع بين الطرزين الشرقي والغربي. ومنظره يأخذ في القلب ويسبي العين معًا لاسيما انَّ البوسفور يحفُّ بهِ مع كل محاسنهِ فيصبح لهُ كإطار جميل يضاعف روعتهُ في عين الناظر الذي لا يتمالك عن الدهشة والعجب بازاء هذا الاثر الجليل فيصرخ: لله! ما ابدع هذا البناء فانهُ لجدير بسكنى الملوك

وبواطن هذا القصر افخم من ظواهرهِ تستدلُّ عليها من مدخل حديقتهِ الذي يبهر النظر بحسنهِ. وفي مقاصيرهِ من اسباب الثروة والامتعة والمفاخر ما يفوق كل وصف وهناك ردهة الاستقبال وقاعة العرش والاجياد فانها تمتدُّ على طول الدار الوسطى وهي من اعظم نوادي اوربة الملوكيَّة وافخمها. وفيه ايضًا حمَّام كلهُ من الرخام الابيض الشفاف تزينهُ التصاوير البديعة. وعن شمال القصر مَلعب للتمثيل وعلى مسافة قريبة منهُ جامع من الطف الابنية يُعرف «بجامع الوالدة» شيَّدتهُ ام عبد المجيد تعلوهُ منارة كأنها الابرة حسنًا ورشاقة وهذا القصر الجليل سكنهُ عبد المجيد. ثم احتلهُ عبد العزيز وفيه عُزل في ١٨ ايَّار سنة ١٨٧٦. ثم أقام فيه مدَّة عبد الحميد فسئمهُ وانتقل الى خلوة يلديز. وقد اصاب الدهر بنايهِ محاسن هذا القصر لعدم السُّكنى فيه والمهندسون لا يزالون اليوم مشغولين في ترميمه والنفقة لذلك سوف تبلغ كما قيل ٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية

اما چراغان ومعناهُ قصر الانوار فجُدّد بناؤهُ بين السنتين ١٨٦٣ و ١٨٦٧ وتولَّى هندستهُ سركيس بك باليان فشيَّدهُ على الطرز التركي المستحدث كطوله بتچه الَّا انهُ اقلّ زخرفةً ولكن اشدّ موقعًا في النفوس بعظمته وهيبته حتى قيل انَّهُ اجمل ما ابتناهُ السلاطين من القصور الى يومنا وكلُّه من الرخام تبلغ واجهته ٧٥٠ مترًا

ولهذا القصر من التاريخ ما ينطبق على مهابة منظرهِ فانَّ فيهِ قُتل عبد العزيز بعد خلعهِ وفيهِ ايضًا عاش السلطان مراد الخامس ومات قبل ثلاث سنوات. وقد اقام

ان يُعاد قريبًا طبعهُ فيُضاف اليهِ ما يوافق الاحوال الحديثة

السلطان الحالي في هذا القصر ٣٢ سنةً الى ان دار دولاب الامور فوقي عرش السلطنة ولم يحبَّ ان يجعل فيهِ سكناهُ تشاؤمًا بذكرهِ فآثر طوله بفحه . امَّا عبد الحميد فأنَّهُ لمَّا تحقَّق ان رؤساء عسكر سالونيك لم يريدوا قتلهُ طلب ان يُفرَد قصر چراغان لسكناهُ وفيهِ كان قضى اوَّل سني حداثتهِ الَّا ان ارباب الامور لم يلبُّوا طلبتهُ خوفًا من سطوتهِ ودسائسهِ

هذه اسطرٌ قليلة كتبناها في بعض آثار الاستانة العليَّة والقلب مفعم من تأثيرها فنختمها بنظر عامّ في موقعها وتاريخها . انَّ الاستانة مركز عمرانين عظيمين خلف احدهما الآخر دون ان يبيدهُ بعد مرّ الاجيال . هي مدينة القياصرة ومحطّ رحال السلاطين . سبق قسطنطين الكبير بسموّ مداركه فعرف ما لموقع هذه الحاضرة من المستقبل الفريد فجعل فيها مقامه وعُني في تحصينها وتحسينها حتى جعلها عروس المدن وحصن الدولة . ثم قام من بعدهِ ملوك الروم وزادوها زهوًا وجمالًا ولاسيما يستنيان الذي ابتنى فيها كنيسة آيا صوفيا آية الهندسة البشريَّة ثم عرف السلاطين بنو عثمان انَّ في الاستانة اوج عظمتهم فلم يزالوا يأخذون بخناقها حتى فتحها محمَّد الثاني فاجتمع فيها بعدهُ طرفا المحور وبقي العنصران مهاجرين الى يومنا هذا . فعلى الرعايا العثمانيَّة ان توحِّد ذينك العالمين وتتصافح في تلك العاصمة الكبرى على اختلاف اصولها وعمرانها فتسير اليد باليد وتجعل الاستانة امّ التمدن بمحاسنها الفتَّانة والله على كل شيءٍ قدير

الكثلكة في ماردين

رواية لشاهد عيانٍ نشرها الاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

ولمَّا انزلوني قدَّام الخان العتيق جاء واحد كاثوليكي يسمَّى كرابيد ابن چنكر وشلح لفَّتهُ وباس يدي . ثم اخذوني الى الحبس وكان الحبس قدمكاه (١ واجلسوني فوق البياسات (٢ ووقت المساء عصر (ضيَّق) الاوضاباشي الزنجير على كلتا وطلب منَّا برطيلًا وعاقبنا الى نصف الليل فدفعت لهُ ذهبًا حتى يرخي الزنجير علينا فارخاهُ

١) لفظة فارسيَّة بمعنى المستراح ٢) البياسة من الايطالية piazza بمعنى الحوش واراد بها الأقذار